

تلقي الناقد محمد عزّام للمنهج البنيوي التكويني "فضاء النصّ الروائي" أنموذجا

Critic Muhammad Azzam's Reception of the Structural-Formative Approach "The Space of the Narrative Text" a model

أ.فهيمة حمداوي^{1*}، أ.د يوسف لطرش²

مخبر بحوث في الأدب الجزائري ونقده - جامعة الوادي-

¹ جامعة تبسة، (الجزائر)، fahima.hamdaoui@univ-tebessa.dz

مخبر بحوث في الأدب الجزائري ونقده - جامعة الوادي-

² جامعة خنشلة، (الجزائر)، lettlang@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/12/31

تاريخ المراجعة: 2022/12/19

تاريخ الإيداع: 2022/12/01

ملخص:

وقفنا من خلال دراستنا هذه المعنونة بتلقي الناقد "محمد عزّام" للمنهج البنيوي التكويني -فضاء النصّ الروائي- أنموذجا على أهم الجوانب النظرية الخاصة بالمنهج البنيوي التكويني والمتمثلة في الجهاز المفاهيمي والاصطلاحي وأهم الرواد، أمّا الجانب التطبيقي فكان دراسة في مجال "نقد النقد" باعتماد خطاب التحقيق والمراد منه اختبار الصحة من خلال دراستنا للكتاب النقدي والمعنون بفضاء النصّ الروائي مقارنة بنيوية تكوينية للناقد "محمد عزّام" مبرزين أهم المفاهيم والمصطلحات التي اعتمدها الناقد عزّام في دراسته لروايات الكاتب السوري نabil سليمان.

الكلمات المفتاحية: رؤية العالم، البنية الدالة، الوعي الممكن، الوعي الكائن، الفهم، التفسير.

Abstract

Through our study, entitled "Receiving the Critic "Mohammed Azzam" of the structural-formative approach - the space of the narrative text- a model on the most important theoretical aspects of the structural-formative approach represented in the conceptual and idiomatic apparatus and the most important pioneers, while the applied side was a study in V. The field of "Criticism of Criticism" by adopting the discourse of investigation, and it is intended to test the correctness through our study of the critical book entitled in the space of the fictional text. A structural and formative approach to the critic "Muhammad Azzam", highlighting the most important concepts and terminology adopted by the critic Azzam in his study of the novels of the Syrian writer Nabil Suleiman

Key words: Seeing the world, meaningful structure, possible awareness, object awareness, understanding, interpretation

*المؤلف المراسل

تمهيد:

حظي المنهج البنيوي التكويني بمكانة متميزة ضمن دائرة المناهج النقدية، لأنّه جمع بين منهجين مختلفين إحداهما بنيوي (نسقي) والآخر اجتماعي (سياقي) ذلك أنّ الأدب ذو صلة وثيقة بالحياة المجتمعية، فهو يعكس تطور النشاط الفكري والثقافي للمجتمع، وكذا تركيزه على عملية التشكيل الفني الجمالي للنص الأدبي، ومن خلال هذه العلاقة الجدلية بين الأدب والمجتمع ظهرت بعض المناهج النقدية ومن بينها المنهج البنيوي التكويني الذي حاول إعطاء تصور لهذه العلاقة وكيفية تأثير الأول في الثاني حيث سنحاول من خلال دراستنا هذه الوقوف على الجانب النظري للمنهج البنيوي التكويني، وما هي أهم المصطلحات والمفاهيم التي وظفها الناقد محمد عزّام في دراسته؟ معتمدين في ذلك على توظيف دراسة نقد النقد في مجال خطاب التحقيق المراد منه اختبار الصحة.

أولاً: مدخل نظري (البنيوية التكوينية)

1- مفهوم البنيوية التكوينية (Structuralisme génétique):

ظهرت البنيوية التكوينية في سياق حركة النقد الجديد في فرنسا بداية النصف الثاني للقرن العشرين، حيث يعدّ الجهد النقدي للناقد "لوسيان غولدمان" (1970.1913) (Lucien Goldmann) امتداداً منظماً للإرث النظري لأستاذه "جورج لوكاتش" في مجال نقد الرواية، فالأطروحات النظرية التي عمل على صياغتها يظهر فيها التأثير الواضح بكتابات لوكاتش خاصة كتابه "نظرية الرواية" كما أنّ بحثه في التشكيلات الثقافية الدالة على رؤية العالم تعتمد في جانب منها على مفهوم البنيات الذهنية في الفكر الهيغلي حيث ركز غولدمان اهتمامه على دراسة البنية الفكرية والمجتمعية للنصّ الأدبي للوصول إلى فكر المجموعة أو الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها المبدع¹ ما يعني أنّ النقد البنيوي التكويني يقوم على مقارنة النص انطلاقة من ربطه بالبنية المجتمعية للنصّ تسهيلاً لعملية فهم التركيبة الثقافية والاجتماعية لكل فرد ضمن الخطاطة البشرية.

إنّ فهم مختلف قضايا النقد الأدبي الروائي وفق الإطار المنهجي البنيوي التكويني يستلزم علينا البحث عن المرتكزات النظرية والتطبيقية التي أقرّها غولدمان وهذا من خلال مؤلفاته النقدية الموسومة بـ "الإله الخفي" عام 1956 ومؤلفه "من أجل سوسيولوجيا الرواية" سنة 1964 وكتاب "الماركسية والعلوم الإنسانية" وغيرها حيث توصل الناقد محمد خرماش أنّ هناك مقولة أساسية عند غولدمان بنى عليها تصوره المعرفي والنقدي لمنهجه البنيوي التكويني من خلال مؤلفاته النقدية " أنّ كل سلوك إنساني يعتبر محاولة لتقديم جواب دال معين على وضعية خاصة...² فالإنسان عبارة عن نظام سلوكي يحمل جملة من البنيات الدالة ذلك أنّ تكوينية مختلف النصوص الأدبية تعود للبيئة الاجتماعية والفكرية والثقافية التي يعيش فيها المبدع بحكم أنّ المبدع ابن بيئته يؤثر ويتأثر بها.

نجد أنّ الموضوع الأساسي والمحوري الذي ركز عليه غولدمان في كتابه "الإله الخفي" le dieu caché هو دراسة الرؤية المأساوية أو التراجيديا في "خواطرباسكال" و"مسرح راسين" دراسة علمية لتبيان الرؤى والتداخل بينهما حيث يرى الناقد محمد نديم خفشة "... لم تكن عملية فهم أحد المؤلفات إلا بوضعه في سياقه الاجتماعي والتاريخي، لأنّ ترتيب عناصر الكلام قد يبدل المعاني، وتغيير ترتيب المعاني يؤثر في دلالتها..."³

ويوضح لنا الناقد من خلال هذه الفكرة وجوب الانطلاق من البنية النصية ثم إعادتها إلى سياقها الاجتماعي والتاريخي الذي عاش فيه كل من "باسكال" و"راسين" للكشف عن الرؤية التراجيدية في مؤلفيهما، ويضم كتاب الإله الخفي أربعة أقسام موزعة على النحو التالي:

القسم الأول: الرؤية المساوية

القسم الثاني: الأساس الاجتماعي والثقافي

القسم الثالث: الحركة الجانسنية

القسم الرابع: الرؤية المساوية في مسرح راسين وخواطر باسكال

نلاحظ أنّ القسمين 3 و 4 هما اللذان خصصهما لدراسة وتحليل الأعمال الفكرية لباسكال والأدبية لراسين وتحديد رؤية العالم عند الجانسنية، حيث توصل الناقد غولدمان إلى أنّ باسكال وراسين قد عبرا في كتابيهما عن رؤية مأساوية وتشاؤمية إلى الوجود وهذه الرؤية محكومة بمنطلق وفكر روحانية الحركة الجانسنية و انتمائهما من جهة أخرى إلى طبقة اجتماعية هي "نبالة الرداء" وتم التوصل إلى هذه النتيجة من خلال الربط بين رؤية العالم والطبقات الاجتماعية، والرؤية المساوية لحركة الجانسنية* وعلاقتها "بنبالة الرداء"⁴ وهي تمثل الرؤية التراجيدية التي من خلالها كشف غولدمان عن أهم المظاهر الاجتماعية البشرية المتمثلة في اللاهوتية والإيديولوجية والفلسفية والأدبية وحققت تماثلا فيما بينها، حيث نجد الناقد "يوسف الأنطاكي" يشير إلى أنّ مقولة التماثل البنيوي هي "التي تؤذن بتحقيق العمل الأدبي لوظيفة الجمالية حيث يكون كاشفا لذلك الغموض كمثل لبنية ذلك الوعي فيما يقبل أو يرفض أو ما يطمح إلى تحقيقه في ثنايا الأعمال الأدبي..."⁵، فالغموض نسق بنائي إيحائي يصور فيها المبدع -حسب نظرة الناقد يوسف الأنطاكي- الواقع الاجتماعي وفق بنيات دالة تتحرى فيها الوظيفة الجمالية مهمة تمرير رسائل مشفرة عن المجتمع.

أمّا مؤلفه الثاني الموسوم "من أجل سوسولوجيا الرواية" تضمن جملة من القضايا المعرفية والأدبية بحيث كان جنس الرواية الموضوع الرئيسي لذلك كان التفسير السوسولوجي أحد العناصر الأكثر أهمية في تحليل العمل الفني، كما لا يشكل إلا خطوة أولى وضرورية، والمهم هو العثور على المسار الذي عبر فيه الواقع الاجتماعي والتاريخي عن نفسه في النتاج الأدبي⁶ فالرواية تساهم من خلال جودتها واتساع أفقها السردية منح المبدع مسافات سردية يعبر بها عن واقع المجتمع بنظرة واقعية وأسلوب فني ساحر.

اعتبر غولدمان أنّ هناك علاقة تناظر بين البناء الروائي الكلاسيكي والبناء الاقتصادي لتلك الفترة، ثم انتقل إلى دراسة الأعمال الروائية "لأندرية مالرو" من خلال التركيز على البناء الداخلي لأعماله الروائية وعدم تجاوز الجوانب السوسولوجية عبر مختلف مراحل التحول الاجتماعي والتاريخي الذي مرّ بها المجتمع الفرنسي حيث أنّ الرواية تصور الواقع الاجتماعي بكونه مجرد عنصر لا يكتمل معناه بإرجاعه إلى الحياة والبيئة التي عاش فيها الكاتب⁷، فأى بناء روائي يستدعي بالضرورة المزج بين عاملين التاريخ والمجتمع كونهما يشكلان نموذج سردي يعتمد عليه الروائي لتمثيل وتصوير الواقع وفق رؤية جمالية مليئة بالاستعارات الملحة والبنيات الدالة على البعد الهوياتي لأي نص روائي.

توصل الناقد غولدمان في كتابه أنّ منهجيته جاءت كرد فعل على بعض المفكرين والنقاد الماركسيين من أجل التوفيق بين الطرح البنيوي الشكلي والبديل البنيوي التكويني لذلك فهي تتضمن بداية إيديولوجية تصور العالم تصويرا للمادية الجدلية التاريخية ولكنها قبل كل شيء دليل منهجي لمقاربة النتائج⁸ وعلى هذا الأساس فإن التكوين الفردي والجماعي لها ذلك أنّها لا تسير الميولات الفردية بل تنغمس ضمن بنية كلية الوعي الجماعي ليتحقق الانسجام⁹ أمّا عن علاقتها بالبنيوية الشكلية فتبرز قضية إلغاء الذات وإحلال مكانها للغة بحيث " تدرس العمل كجزء من نسق أكبر وأنّه لا يملك معنى مستقلا عن النسق ككل"¹⁰، حيث تصبح البنية الكلية أو النَّصِّ الأدبي خاضعة لنظام هذا النسق المغلق، وعموما بعد إلقاء هذه النظرة الموجزة على أهم مؤلفات الناقد غولدمان سنحاول الانتقال للتعرف على أهم مصطلحات ومفاهيم المنهج البنيوي التكويني.

2/ مصطلحات ومفاهيم المنهج البنيوي التكويني:

أ/ الوعي القائم (الكائن) (conscience réelle): يوضح لنا الناقد عمر عيلان أنّه شكل من أشكال الوعي البسيط والمتداول بين أفراد الطبقة الاجتماعية فهو وعي بالحاضر مستمد من الماضي ويؤكد إحساسهما بأنها تكون وحدة متكاملة من مستويات وجودها الاجتماعي والاقتصادي والفكري والمعرفي والثقافي فهو وعي عام ومشترك عند جميع أفراد الطبقة الاجتماعية¹¹.

ب/ الوعي الممكن (conscience possible): يتجاوز الوعي الممكن المستوى المتداول من الوعي القائم، لأنّه يتميز بالشمول والاتساع في رؤيته لوضع الطبقة أو المجموعة الاجتماعية التي ينتمي إليها الكاتب حيث يتصف بأنّه فرد متميز عن باقي أفراد طبقته الاجتماعية لأنه ذو فكر ونظرة استشرافية تحاول رسم آفاق جديدة لتغيير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي تعاني منها طبقته الاجتماعية أيّ أنّ هذا النوع من الوعي تختص به فئة مثقفة (كالكتاب والمفكرين والفلاسفة)¹².

ج/ الوعي الزائف (الخاطئ) (la fausse conscience):

يتمثل هذا النوع من الوعي بأنّه نمط يصف خيبة المسعى وانغلاق الأفق وهو عند غولدمان اصطلاح مواكب للبطل المأزوم الذي يخطئ في فهم الواقع فيتبع أوهامه التي تطرح به بعيدا عن الواقع الحقيقي لسداجة تفكيره أو عدم تقبله لموضوعاته ومنطقه لفهم العالم وعدم تأقلمه مع منطق ومبادئه¹³.

د/ البنية الدالة (Structure signification): يرى الناقد عيلان أنّ البنية المقصودة عند غولدمان هي ذلك الترابط الحاصل بين رؤية العالم التي يعبر عنها النَّصِّ والواقع وعناصره الداخلية شكلية أم فكرية، حيث أنّ الوصول إليها يتطلب بحثا حثيثا وجديا ومفصلا للأحداث الواقعية، ومعرفة معمقة للقيم الفكرية المنبثقة عنها ضمن ثلاثة محاور في النَّصِّ تتمثل في الحياة الفكرية النفسية والحياة الاقتصادية والحياة الاجتماعية التي تعيشها الطبقة الاجتماعية ويعبر عنها الكاتب في نصّه الروائي وهذا يعني أنّ البنية الدالة تقوم على الارتباط والتناظر بين البنية الاجتماعية في النَّصِّ من خلال القيمة الثقافية والفلسفية وبين الطبقة الاجتماعية التي تماثلها في الواقع¹⁴.

هـ/ رؤية العالم (la vision du monde):

تمثل رؤية العالم وجهة نظر متناسقة وحدودية حول مجموع واقع وفكر الأفراد حيث لا يتعلق الأمر هنا بوحدة ميتافيزيقية ومجردة بدون شكل أو جسم بل يتعلق الأمر بنسق فكري يفرض نفسه على مجموعة من الأفراد توحد بينهم شروط وظروف متشابهة تجعلهم في تعارض مع الطبقات الاجتماعية الأخرى¹⁵ ، ونجد أنّ "عمر عيلان" يوافق هذا الطرح بحيث يرى أنّ مفهوم رؤية العالم يشكل شكلا من أنواع الوعي لدى طبقة اجتماعية معينة ويلغي عنه كل تصور ميتافيزيقي حيث تشكل جوهر الظاهرة الاجتماعية التي يدعوها علماء الاجتماع بالوعي الجماعي¹⁶ ويضيف الناقد "محمد أقضاض" أنّ رؤية العالم بحسب الناقد "غولدمان" هي عبارة عن أداة إجرامية ومفهومية لفهم التعبيرات المباشرة التي تحتوي فكرة الأفراد، وتتجلى أهميتها على المستوى الإجرائي حين تتجاوز فكر وعمل المفكر لترتكز على التشابه الكائن بين مجموعة من الأعمال الفلسفية أو الأدبية وهذا ما قام به الناقد "غولدمان" لحظة دراسته الرؤية المأسوية عند كل من باسكال وراسين¹⁷ أي أنّها تعني إدراك المبدع لمشاكل حياته ومشاكل عصره بغريزة فنية مؤكدة من خلال رؤية جماعية لمجموعة من الأفراد تجاه العالم الذي يعيشون فيه من خلال قيم فكرية وآمال وطموحات وإيديولوجيات يمثلها المبدع في كتاباته تؤسس لرؤية العالم¹⁸.

و/ القيمة (la valeur):

إنّ إحدى المعايير الأساسية لقيمة النتاج الأدبي حسب غولدمان تتمثل في مقدار تعبيرها عن رؤية متناسقة للعالم على مستوى المفهوم وعلى مستوى الصورة اللفظية أو الحسية، حيث أنّ التفسير العلمي لنتاج ما لا ينفصل عن إبراز قيمته الفنية والجمالية لذا يجب على الكاتب أن لا يكون غريبا وبعيدا عن واقعه دون أن يفقد النصّ الأدبي قيمته الجمالية، حيث أنّ القيمة الحقيقية حسب غولدمان ليست هي القيمة التي يصفها القارئ أو الناقد بل التي توجد ضمنا في عالم النتاج الأدبي الذي يخلقه الأديب في نصّه الأدبي فالمبدع يصور مجتمعه بصورة واقعية مع إبداع فني تخيلي يمنحه قيمة جمالية¹⁹.

ز/ التماثل (l'homologation):

تستمدّ الصبغة الاجتماعية للإبداع الأدبي وجودها من بنيات عالم النصّ الأدبي متماثلة مع البنيات الذهنية للفئات الاجتماعية فطبيعته تكوّن بنية العمل الأدبي تماثل تكون البنيات الأوسع في مستويين الأول يبيّن البنية بعناصرها وعلاقتها الداخلية التي تشبه تبيين البنية الأوسع أمّا الثاني فيمثل مستوى التطور التاريخي فتلك البنية تتحرك زمنا بشكل يماثل تحرك ذهنيا للفئات الاجتماعية كما يماثل تحرك المجتمع ككل، وبهذا يصبح التماثل هو البحث عن مدى تصوير الرواية للعالم من منظور الجماعة والكشف عن درجة تطابق البنية الاجتماعية في الرواية مع الواقع الاجتماعي الذي تحاول الرواية تصويره²⁰.

ح/ الفهم (la compréhension):

تقتضي مرحلة الفهم البحث في بنية النّص الداخلية ومكوناتها الجمالية والفكرية دون الاستعانة بوسائط خارجية حيث تركز هذه المرحلة الأولى على مشكلة الانسجام الداخلي للنص والأخذ بحرفيته كل النّص ولا شيء سوى النّص²¹

ط/التفسير (l'explication):

تأتي هذه المرحلة بعد الانتهاء من عملية الفهم وتتمثل في تفسير البنية الدالة للنص ذات البعد الفكري ووصلها بنمط فكري خاص في البيئة الاجتماعية الواقعية تتبناه ذات اجتماعية تتمثل في ذات المبدع ومن هنا يصبح تفسير البنية الدالة ذات بعد اجتماعي محكوم بقاعدة التماثل والتفاعل الضروري للتعبير عن الأفكار والإيديولوجيات المتصارعة في الواقع الاجتماعي²² ، ومن خلال رصد المصطلحات والمفاهيم الخاصة بالمنهج البنيوي التكويني نستنتج أنّه منهج تجاوز إلى حد كبير النقد السوسولوجي الجدلي، وأسهم في بناء جمالية نقدية جديدة تتميز بمرونة كبيرة عبر ما طرحته من مفاهيم نظرية للتحليل السوسولوجي للنصوص الروائية بعيدا عن كل تنميط إيديولوجي ضيق الأفق.

ثانيا/ تلقي الناقد محمد عزّام للمنهج البنيوي التكويني في كتاب فضاء النص الروائي مقارنة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان:

قام الناقد "محمد عزّام" بدراسات متعددة تتمظهر فيها بعض خصائص المنهج البنيوي التكويني من بينها

1/ وعي العالم الروائي- دراسات في الرواية المغربية 1999.

2/ الفهلوي بطل العصر في الرواية الحديثة 1993

3/ فضاء النّص الروائي- مقارنة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان 1996

4/ شعرية الخطاب السردى 2005

لكنّنا سنخصص دراستنا هذه على كتاب فضاء النّص الروائي لأننا وجدنا أنّ الناقد "محمد عزّام" صرّح بالتزامه للمنهج البنيوي التكويني حيث أنّ هذه الدراسة تعدّ من المحاولات النقدية العربية البارزة التي مثلت المنهج البنيوي التكويني تنظيرا وتطبيقا، حيث افتتح الناقد كتابه النقدي بانتقاد واضح وجهه للدراسات النقدية العربية التي تهتم بجانب المضمون و تهمل جانب الشكل، بل الأحكام الذاتية والشخصية حيث يقول "الاكتفاء بتلخيص مضمون الرواية في محاولة لتأكيد أحكام القيمة المستمدة من العرض السريع للمضمون .."²³ ، وتوجه الناقد إلى المنهج البنيوي التكويني لأنّه يمثل مقارنة نقدية تربط بين البنيات الداخلية للنّص وقيمها الفنية الجمالية وبين الواقع الحقيقي الذي عايشه الروائي مستفيدة من المناهج النقدية الجديدة ومتجاوزة إياها إلى تفسير البنيات الخارجية في المجتمع، ذلك أنّ اختراق البنية الثقافية والإيديولوجية والاجتماعية لفضاء النّص الأدبي يعني وضعه في سياقه التاريخي وربطه بالبنيات الاجتماعية التي أسهمت في إبداعه²⁴ أي النص الروائي بنية دلالية (داخلية) مفتوحة على معارف إيديولوجية وثقافية واجتماعية (خارجية) والناقد هو الذي يدرس ويحلّل بنيات العمل الأدبي الداخلية والخارجية، ويكشف عن الترابط الجدلي بينهما.

يربط المنهج البنيوي التكويني بين داخل النّص وخارجه ضمن تعالقات المناهج النقدية (الشكلانية والبنيوية والنقد الاجتماعي) حيث يعبرّ الروائي بالنص بأسلوب فني جمالي مناسب للوعي الجماعي (الرؤية الجماعية)

ويتضح ذلك في قوله " ليس الروائي هو الذي يصنع الرواية بل الرواية هي التي تصنع نفسها بنفسها.."²⁵ أي أنّ النصّ الروائي ليس من إنتاج الروائي بل هو موجود في فكر الجماعة التي ينتمي إليها المبدع، بحيث تفتح تلك الرؤية الجماعية في النصّ الروائي لتتحول وتصبح رؤية العالم بحسب الناقد محمد عزام²⁶، ولقد اختار الناقد "محمد عزام" روايات الأديب "نبيل سليمان" ليطبق عليها الآليات الإجرائية من مصطلحات ومفاهيم للمنهج البنيوي التكويني، وهي إحدى عشر رواية وهي مجموعة روايات تشترك مضامينها في سرد ووصف ومعالجة تاريخ سوريا الحديث والمعاصر من أجل إرجاع الحقوق المسلوقة للأفراد البسطاء العاديين فجاء الفنّ الروائي ليصور بطولاتهم المنسية²⁷.

قسّم الناقد "محمد عزام" دراسته هذه قسم نظري وتطبيقي أمّا الأول تضمن الوقوف على المنطلقات الأساسية للمنهج البنيوي التكويني سواء أكانت منطلقات فلسفية أو نقدية، ثم رصد أعلامه و مصطلحاته، ومفاهيمه مركزا على الناقد لوسيان غولدمان في كتابه "الإله الخفي"، أمّا الثاني فهو قسم تطبيقي تتبع فيه الناقد نشأة الرواية وتطورها وأنواعها وأبرز خصائصها عند الغرب ثم عند العرب ليصفها إلى روايات متعددة تتمثل في رواية تيار الوعي والرواية الجديدة، الرواية الطليعية، الرواية التجريبية) تحتل روايات الأديب السوري "نبيل سليمان" مرتبة الرواية الطليعية وهي نوع من الروايات التي توظف النسبية في الكتابة (النظر إلى الحدث من زوايا متعددة)، واهتم أيضا بمصطلحات سردية متعددة منها التبئير (وجهة النظر)، الشخصيات في روايات "مدارات الشرق" وهزائم مبكرة" وأيضا مصطلح المكان والزمان في روايات "مدارات الشرق" و"المسلة" و"قيس بيبي"، ومن جهة أخرى نجد الناقد "محمد عزام" استعان بالمنهج السيميائي في تحليل الخطاب الروائي الذي تعامل مع النصّ على أنه دليل منفتح على دلالات متعددة باعتبار أنّ النصّ ينتج من خلال اللغة ثم يتجاوز إلى الدلالة (المعنى) وهكذا يتكامل التحليلان الألسني البنيوي والسيمولوجي والبنيوي التكويني من أجل الوصول إلى قراءة كاملة للنصّ²⁸، ويشيد الناقد عزام بالتحليل الشكلاني للرواية عند أعلامها "توماتشفسكي" و"فلاديمير بروب" و"جاكسون" الذين رفضوا المناهج السياقية (تاريخية، اجتماعية، نفسية) حيث أنّ الشكلانية الروسية هي التي استندت إلى البنيوية التي انبثقت منها اتجاهات نقدية متعددة مثل البنيوية التكوينية، والتفكيكية... الخ²⁹.

نجد أنّ الناقد "محمد عزام" اعتمد على المفاهيم الأساسية الغولدمانية وطبقها في دراسته منها رؤية العالم، البنية الدالة، الرؤية المتساوية، الوعي الممكن، الوعي الكائن وهي تمثل المفاهيم الأساسية للمنهج البنيوي التكويني محاولا إدراك المجتمع في كليته رابطا بذلك كل ما هو اقتصادي بما هو سياسي وأدبي وفني، وكشف العلاقات الوظيفية بين المؤسسات الاجتماعية والأعمال الأدبية حيث يرى في مفهوم "الكلية" أنّ التجربة المجتمعية والتاريخية تنكشف عن ذاتها من خلال الممارسة الاجتماعية، والكلية عنده هي مجموع الوقائع التي نعرفها وليس كلا متعاليا عن المجتمع والتاريخ³⁰.

كما وقف على مرحلة "الفهم" التي تعدّ مرحلة أساسية وأولية للتعامل مع النصّ الروائي من خلال القراءة الداخلية حيث شرح وجهة النظر عند علماء السرد ورأى أنّ الروائي يعتمد في روايته أشخاصا من الواقع حيث وجد أنّ الروائي "نبيل سليمان" الذي تحدث من خلال ضمير "الأنا" البطل الذي التحق بخدمة العلم فشهد هزائم متتابعة، حيث أنّ البطل يروي قصته لأبنائه لتكون عظمة وعبرة لهم، والراوي لا يكون ظهوره مباشرة في

النص الروائي، ووقف على بنية تحليل بنية الزمان في عدة روايات لنبيل سليمان حيث وجد أنّ هناك تداخل للأزمنة في رواية "المسلة" منها:

- زمن الحكاية: يتمثل حرب أكتوبر 1973 وهو زمن حسي يمثل الواقع الخارجي³¹

- زمن الكتابة: تتداخل فيه وقائع المروي بوقائع حياة الراوي

- زمن القراءة: يرتبط بزمن الظروف الخارجية الخاصة بالقارئ وهي التي نجدتها في قراءة النص الروائي، حيث يبحث المتلقي عمّا هو مكتوب في الرواية في أسطرها وما بين أسطرها بمعنى هي قراءة ثانية للنص الروائي تكون دلالتها رمزية موحية باعتبار أنّ هذا النوع من القراء هو القارئ المنتج الذي يتميز برصيد معرفي ثري ومتنوع فالقارئ يجزئ الكلية ليمنحها نظاما جديدا³²، وبعد انتهاء الناقد محمد عزام من المرحلة الأولى (الفهم) انتقل إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة التفسير التي تمثل قيام الناقد بقراءة خارجية للنص الروائي، أي إرجاع الرواية إلى واقعها الحقيقي الخارجي ويتضح ذلك من خلال قوله "... بعد الكشف الأولي عن القوانين الملازمة للبنية الفنية في النص الروائي لابدّ من تجاوزها إلى الخطوة التالية المتمثلة في الانتقال إلى بنية أوسع ننقل فيها من مرحلة الفهم إلى مرحلة التفسير.."³³.

أي تفسير البنيات التاريخية والثقافية والاجتماعية التي أفرزها الكاتب "نبيل سليمان" في روايات بحتمية إرجاعها إلى البيئة والواقع الحقيقي الذي عاشه وعائشه الكاتب نبيل سليمان، فتوصل محمد عزام أنّ البيئة الإيديولوجية والاجتماعية والسياسية التي عاشها الكاتب هي أثر للواقعية الاشتراكية الغربية ومدى مساهمتها في ظهورها في سوريا، حينما أشار إلى النص الغائب والمتمثل في الذاكرة الروائية الغربية ثم الذاكرة العربية الحديثة والمعاصرة، وببين لنا الناقد أنّ كل من روايتي "السجن" و"ينداح الطوفان" تعدّان بتعبير وانعكاس واضح وصريح للايديولوجيا في الأدب والواقع الاجتماعي في أشمل معانيه الثقافية والأدبية³⁴.

تعامل الناقد "نبيل سليمان" مع التأثيرات التي خلفتها حرب تشرين وليس من وقائع الحرب ذاتها كما أنّه لم يكتف بالواقع السطحي بل يغوص في الأعماق بمعنى آخر أنّ الأديب أراد من خلال كتاباته الروائية أنّ يوصل إلينا المعاناة والآلام والأحزان التي خلفتها تلك الحرب، وهي محاولة الغوص فيها من خلال التأثر والتأثير ليصل إلى وصف وإعطاء حلول معالجة لتلك المشاكل التي يعاني منها الأفراد في كل من روايتي "المسلة" و"الجرماتي" حيث أنّ في مستوى الفضاء الاجتماعي يبرز لنا الناقد الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الكاتب، وقد ربطها بالطبقة البرجوازية الصغيرة وفي هذه الفكرة إشارة الناقد إلى مفهوم "الوعي الممكن" و"الوعي الممكن" الذي يتوصل إلى مفهوم رؤية العالم بحسب الناقد غولدمان³⁵ بينما نجد مستوى الفضاء التاريخي حسب تصنيف الناقد "محمد عزام" يدرج روايات الكاتب نبيل سليمان ضمن إطار الرواية التاريخية بحيث اعتبره مؤرخ حقيقي للتاريخ السوري في رواياته بأكملها من حيث سرده لتاريخ وطنه وأمته وتتبع الأحداث التاريخية في تاريخ سوريا، وقام بإعادة تصويرها من وجهة نظر الجماهير التي صنعت التاريخ الفعلي أو بعبارة أخرى "الوعي الممكن" فهو يقدم لنا من خلال أعماله الروائية كتابة موازية للتاريخ هو تاريخ الفقراء والبسطاء والمظلومين الذين سلبت منهم حقوقهم هو تاريخ الأفراد الذين يحملون ويتطلعون إلى مستقبل أفضل ففي رباعيته "مدارات الشرق" يصور فيها

الحياة العامة في بلاد الشام منذ العهد العثماني وحتى العصر الحديث، بينما في روايتي "المسلة" و "جرماتي" يصور حرب تشرين 1973 وانعكاساتها على المجال النفسي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي³⁶.

ليتضح لنا من خلال هذا الطرح للناقد "محمد عزام" بخصوص الفضاء التاريخي أنه يبين لنا المفاهيم المفاهيم الغولدمانية الخاصة بكل من مفهوم الوعي الكائن (الحاضر) الذي يمثل وصفا للوقائع التاريخية الحاضرة بإسنادها إلى الوقائع التاريخية الماضية وهذا من خلال تتبع الأحداث التاريخية بتسلسلها الزمني ويستشهد الناقد بما قدمه "نبيل سليمان" في روايته "و" ينداح الطوفان" "فالقريبة التي تقصها الرواية هي قريتي والأحداث الكبرى عشتها أو عاشها بعض من كانوا حولي"³⁷، أمّا مفهوم الوعي الممكن "المستقبلي" وهذا من خلال الكتابة الموازية للتاريخ التي تعطي حولا مستقبلية للطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها الكاتب بصفة عامة نلاحظ أن الكاتب سليمان اختار أبرز الأحداث العامة والمؤثرة في تاريخ وطنه وشعبه من تاريخها الحديث والمعاصر، وأعاد تفعيل وكتابة كل مرحلة زمنية بصيغة فنية جمالية تحمل في ثناياها رسالة هادفة لتغيّر من خلالها ظروف ومعاناة الأفراد (الشعب السوري).

-خاتمة:

نصل في ختام دراستنا للناقد محمد عزام إلى جملة من النتائج هي كالآتي:

- تعدّ دراسة محمد عزام في كتابه "فضاء النص الروائي" من أبرز الجهود البارزة التي أحاطت بالمنهج البنيوي التكويني من جانبه النظري والتطبيقي.
- ركز على التحليل الشكلاني للنص السردي من خلال توظيف مصطلحات مستمدة من علم السرديات والمتمثلة في التبئير، الزمان، المكان، الشخصيات.
- ركز أيضا على أفكار النقد السوسولوجي بمجالاته المختلفة السياسية والإيديولوجية والثقافية والتاريخية والاقتصادية.
- استفاد الناقد "محمد عزام" من المنهج البنيوي التكويني في كتابه النقدي وهذا من خلال الإلمام بالجانب النظري لهذا المنهج، ومحاولة تطبيق أدواته الإجرائية على روايات الكاتب "نبيل سليمان" ونذكر منها الوعي الكائن، والوعي الممكن، رؤية العالم، البنية الدالة، الفهم والتفسير وهذه الأدوات تمثل أهم المفاهيم الخاصة بهذا المنهج إلا أنه قد غيّب بعض المفاهيم والمصطلحات في هذه الدراسة ونذكر منها الوعي الزائف، التماثل، القيمة وهذا يعني أن الناقد وفق إلى حدّ كبير في تطبيق المنهج البنيوي التكويني على السرد الروائي.
- وظّف الناقد محمد عزام المفاهيم الغولدمانية للكشف عن الرؤى الاجتماعية وتقويم الموضوعات المعالجة في الروايات، وتوصّل الناقد إلى طرف مهم في عملية القراءة وهو القارئ المنتج الذي يفك شفرات الرواية ويغوص في الدلالة، وهذا الذي دفع به إلى إشراك بعض الأفكار السيميائية محاولا منه إغناء عمليات الوعي بما تتيحه من فضاءات القراءة والتأويل لحظة قراءة الرواية وتحليلها من أجل تفسير الكلية في المبنى الروائي فضلا على توضيح المضامين الروائية من خلال إعادة ربطها بمجتمعها وتاريخها في بناء الخطاب الروائي لبلوغ أهداف الحقيقة التي سطرّها الكاتب "نبيل سليمان".

هوامش وإحالات المقال

- 1- محمد عزّام، فضاء النصّ الروائي- مقارنة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان- ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، 1996، ص:18.
- 2- جابر عصفور، نظريات معاصرة، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 1998، ص:108.
- 3- محمد خرماش، إشكالية المناهج في النقد المغربي المعاصر، البنيوية التكوينية، بين النظري والتطبيقي، ط1، أنفو برانت، المغرب، 2001، ص:18.
- * الجانسنسية: مذهب مسيحي يقوم على فكرة الهولندي جانسينيس (1585.1638) آمن بفكر الجبر وأنكر الإرادة الحرة للإنسان ينظر: رامان سلدن النظرية الأدبية المعاصرة، ص: 67.
- 4- محمد نديم خفشة، تأصيل النصّ، ط1، مركز الإنماء، سوريا، 1997، ص:22.
- 5- ينظر: لوسيان غولدمان، الإله الخفي، تر: زبيدة قاضي، ط1، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، 2010، ص:110.
- 6- يوسف الأنطاكي، سوسولوجيا الأدب- الآليات والخلفيات الاستمولوجية، ط1، رؤية للنشر، المغرب، 2009، ص:23.
- 7- ينظر: مجموعة من المؤلفين، البنيوية التكوينية، والنقد الأدبي، تر: محمد سبيلا، ط1، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1984، ص:42.
- 8- ينظر: مجموعة من المؤلفين، الرواية والواقع، تر: رشيد بن جدو، ط1، دار قرطبة، مصر، ص:70.
- 9- ينظر المرجع نفسه، ص:43.
- 10- ينظر: محمد خرماش، إشكالية المناهج في النقد المغربي المعاصر، المغرب، 1998، ص:45.
- 11- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة- من البنيوية إلى التفكيك- ع232. سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص:206.
- ينظر: عمر عيلان، في مناهج تحليل الخطاب السردي، ط1، إتحاد كتاب العرب، مكتبة الأسد، دمشق، ص:259.
- 12- ينظر: المرجع نفسه، ص:260.
- 13- محمد الأمين البحري- البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الأصول المنهجية، ط1، منشورات ضفاف، لبنان، 2015، ص:165.
- 14- ينظر: عمر عيلان، في مناهج تحليل الخطاب السردي، ص:262.263.
- 15- ينظر: لوسيان غولدمان وآخرون، البنيوية التكوينية، ط2، تر: محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان، ص:48.
- 16- عمر عيلان، في مناهج تحليل الخطاب السردي، ص:257.
- 17- ينظر: أفضاض محمد، مقارنة الخطاب النقدي المغربي، ط1، إتحاد الكتاب العرب، مكتبة الأسد، دمشق، 2007، ص:120.
- 18- عمر عيلان، في مناهج تحليل الخطاب السردي، ص:257.258.
- 19- ينظر لوسيان غولدمان، جاك دوبوا وآخرون، البنيوية التكوينية، تر: محمد سبيلا، ط2، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان، 2009، ص:49.50.
- 20- أفضاض محمد - مقارنة الخطاب النقدي المغربي، ص:120.
- 21- لوسيان غولدمان، المنهجية في علم الاجتماع الأدبي، تر: مصطفى المنساوي، ط1، دار أبحاث، بيروت، 1981، ص:14.
- 22- محمد خرماش، إشكالية المنهج في النقد الأدبي المغربي المعاصر، ص:28.
- 23- محمد عزّام، فضاء النصّ الروائي مقارنة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية سوريا، 1996، ص:05.
- 24- ينظر المصدر نفسه، ص:06.
- 25- ينظر: المصدر نفسه، ص:06
- 26- ينظر: المصدر نفسه، ص:07.
- 27- ينظر: المصدر نفسه، ص:07.
- 28- ينظر: المصدر نفسه، ص:19.
- 29- ينظر: المصدر نفسه، ص:26.
- 30- ينظر: المصدر نفسه، ص:53
- 31- ينظر: المصدر نفسه، ص:83.84.
- 32- ينظر: المصدر نفسه، ص:128.129.
- 33- ينظر: المصدر نفسه، ص:133.
- 34- ينظر: المصدر نفسه، ص:154.156.
- 35- ينظر: المصدر نفسه، ص:169.
- 36- ينظر: المصدر نفسه، ص:176
- 37- ينظر: المصدر نفسه، ص:178

قائمة المصادر والمراجع:

- 1/ أفضاض محمد، مقارنة الخطاب النقدي المغربي، ط1، إتحاد كتاب العرب، مكتبة الأسد، دمشق 2007
- 2/ جابر عصفور، نظريات معاصرة، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 1998
- 3/ رامان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، ط1، تر: جابر عصفور، دار قباء للنشر والتوزيع، مصر، 1998.
- 4/ عمر عيلان، في مناهج تحليل الخطاب السردي، ط1، إتحاد كتاب العرب، مكتبة الأسد، دمشق
- 5/ عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة- من البنيوية إلى التفكيك- ع232، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1998
- 6/ لوسيان غولدمان، جاك دوبوا وآخرون، البنيوية التكوينية، تر: محمد سبيل، ط2، مؤسسة الأبحاث العربية، لبنان، 2009
- 7/ لوسيان غولدمان، المنهجية في علم الاجتماع الأدبي، تر: مصطفى المنساوي، ط1، دار أبحاث، بيروت، 1981
- 8/ محمد الأمين البحري- البنيوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الأصول المنهجية، ط1، منشورات ضفاف، لبنان، 2015.
- 9/ محمد عزّام، فضاء النّص الروائي- مقارنة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان- ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، 1996.
- 10/ محمد خرماش، إشكالية المناهج في النقد المغربي المعاصر، المغرب، 1998.
- 11/ إشكالية المناهج في النقد المغربي المعاصر، البنيوية التكوينية، بين النظري والتطبيقي، ط1، أنفو برانت، المغرب، 2001
- 12/ محمد نديم خفشة، تأصيل النّص، ط1، مركز الإنماء، سوريا، 1997
- 13/ يوسف الأنطاكي، سوسيولوجيا الأدب- الآليات والخلفيات الاستمولوجية، ط1، رؤية للنشر، المغرب، 2009.
- 14/ مجموعة من المؤلفين، البنيوية التكوينية، والنقد الأدبي، تر: محمد سبيل، ط1، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1984.
- 15/ مجموعة من المؤلفين، الرواية والواقع، تر: رشيد بن جدو، ط1، دار قرطبة، مصر.